شاهد من هذا العصر : يوميات شهيد قتل في مجزرة الاردن — ايلول ١٩٧٠

رسوم ضياء العزاوي (بغداد ، ١٩٧٢) .

من قلة قليلة من الفنانين التشكيليين العرب ، تشغل اعمال ضياء العزاوي مساحة كبيرة من الهواجس والهموم العربية الراهنة ، التي وهي تنتقل الى اصبغة والوان ، اي الى لغة التشكيل ، تكتسب حضورها من ابتعادها بضع خطوات عن المباشرة واللازمات والهوامش والتفاصيل التي تغلف وتحيط بهذا الشكل او ذاك لوحة الحياة العربية . اي انه باقترابه منا ، لا تستهويه سهولة تقبل الاشياء كما تعلن عن نفسها ، انه يختبرها ، يمحصها ، ينقحها ، واحيانا كثيرة يرفضها ، ليس لانه يستنكف معايشتها كأمور واقعية ، بل لانه يدرك عن تمرس ، طابع الوهم والادعاء ، احيانا التشكل الطارىء للاشياء في اللحظات الراهنة ، وهو هنا يبتعد عن الخفة والاستسهال والتملق ، ويتسلح بحس تجريبي تجعل معالجاته تقترب من الجوهري ومن العام في الحياة العربية المعاصرة ، هموما ووجودا ، نافيا ولافظا الاجزاء الميتة منها ، غير حافل بما تتسربل به اشياؤنا المعاصرة من ادعاءات او نيات او اشكال لم يثبت له صحة تحقيقها . لذلك تبدو اعمال ضياء العزاوي مثيرة لنوع من الشعور والحدس المباشر بأنه يمتد في الماضي اكثر مما هو يرى في الحاضر ، وبتعبير آخر انه يدرس اكثر مما يحس ويعاني ويعايش . ان هذا الشعور ازاء اعمال ضياء لا يخلو من مبرر موضوعي . انه فعلا ولاسباب جد محقة ، يفعل ما يوحي بهذا الشعور عن تصميم واع . ان الانسان العربي الراهن ، ليس هو كليا الذي يقدمه لنا المجتمع المشهدي القائم ، اي مجتمع السوق والبضاعة وتقسيم العمل ، ففي داخل الانسان العربي الراهن يمتد التاريخ اكثر مما يبدو لنا فعل الحاضر ، وهو اذن حصيلة ذلك الامتداد في الماضي وهذا الولوج في الحاضر ، ومن ثم تتشكل حقيقة الانسان العربي بمقدار التفاعل الجارية فعلا بين ما هو تاريخي وراهن ، وهي الحقيقة التي لا تقدمها النظرة الساكنة في لوحة الحياة العربية ، والتي يبدو فيها الانسان العربي فاقدا لذاكرته . وواقع الامر ان ضياء العزاوي يحقق معالجاته التشكيلية ، عبر هذه النظرة الصارمة للواقع . وكثيرون هم الذين توقفوا في تعاملهم مع انتاج ضياء عند المعالجة التشكيلية فحسب ، التي تمتاز بجمالية خاصة . وكثيرون هم النقاد الذين تحت وطأة ثقافة وتقاليد فنية سائدة مارسوا مواقف انبهار امام صنعة ضياء وتقنيته . واعتقد ان بعض — اي جمهور صالونات العرض والنقاد — ظلوا أسرى الفهم الدارج للوحة الفنية ، كبضاعة وكحلية . مضافا الى ذلك ان ابجدية ضياء العزاوي الفنية تنتمي الى اصول الارث الشرقي العريض الكامن في المنطقة . لذلك يفهمون لوحاته كصدى معاصر لهذا الارث .

ما من شك ان جزالة لوحات ضياء العزاوي اللونية والشكلية تتضمن قدرة لا يستهان بها على اغراء المتفرج . وبالنسبة لي شخصيا استهوتني لغة ضياء العزاوي الى حد كبير ، واجد من الصعب علي ان افصل اعجابي التقني بانتاجه عن ذكريات الطفولة مع كل رموز الشرق التي مثلتها سندي قطعة سجاد قديمة .

ان الكتاب الذي نحن بصدده ، والذي يتضمن رواية ضياء العزاوي لذكرات تركها مقاتل اثناء احداث ايلول ١٩٧٠ في عمان ، نموذج لحركته في الحياة والثقافة العربية المعاصرة ، وكشف لرؤيته فيها . فقد تضمن الكتاب نحو ٧٠ تخطيطا يرافق السرد النثري لاحداث القتال في احد جبال عمان « الحسين » من زاوية رؤية مقاتل وشاهد على ما حدث في أيلول . بيد ان هذه الرسوم ليست مجرد Illustrations لهذه المذكرات . وليست مجرد سرد تقليدي يواكب السرد النثري ويقف عند هامشها . انها رواية جديدة بريشة ضياء العزاوي تغني اليوميات التي تركها المقاتل وتقف الى جانبها . والواقع ان المذكرات التي تركها المقاتل تتضمن عناصر الاثارة الحسية ، رغم عيوبها وركاكاتها الانشائية ، فهي قد خضعت الى شيء من التبركة لاغراض صحفية افقدتها شيئا من عفويتها وطزاجتها كانطباعات مباشرة على الاحداث .

وعلى النحو الذي يسلكه السرد النثري تتابع تخطيطات ضياء ، مقدمة تكوينات متنوعة لمقاتلين في حالة انتباه ، واستعداد لحدث مرتقب . ان هذه التكوينات تتضمن اوضاعا منتخبة لمقاتلين مبابطين أسلحتهم الفردية ، أو هم يشرعونها ، ويمتزج التخطيط بالكتابة اللغوية ، المشتقة من مادة